بين الشرق والغرب

لباحث فاضل

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

(ثالثاً) : (كذلك لا يعترض علينا بالجانب العلمي من الثقافة الاسلامية لأنها نتيجة الأخذ بأساليب الفكر اليوناني)

انتهى الكاتب إلى أن الجانب العلمي من الثقافة الاسلامية نتيجة الأخذ بأساليب الفكر اليوناني . ولماذا لا يكون هذا الجانب نتيجة للأخذ بأساليب الدين الاسلامي وتعاليمه ؟

١ — « الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا ... »

٢ — « أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ... »

٣ — « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون »

٤ — « فلينظر الانسان مم خلق، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب »

هذه آيات بينات اعتقدها المسلم بالسيف ولا بغيره، ولم تدخل في معتقده عن طريق العاطفة والمسايرة بل دخلت عن طريق العقل فقط . ألا ترى أن في كل حرف فيها دعوة صريحة إلى التفكر في مخلوقات الله ؟ ولماذا دعاهم إلى هذا التفكر ؟ ليعتقدوا بعظمة الله أم يهتدوا بوجوده ؟ لاشك بأنه للاهتداء إلى الوجود لأن التعظيم يكون لشيء يعتقد بوجوده وهم لم يعتقدوا بعد بذلك. سمح لهم بالشك في كل شيء والتفكر في كل شيء ودعاهم إلى تحرير عقولهم من قيود العبودية الزمنية . وبعد هذا ألا تعتبر هذه الدعوة أساساً علمياً، لأن استعمال العقل في التفكر في مخلوقات الله هو الأسلوب العلمي بعينه . أفيكون اليونان أصحاب الفضل في ذلك فيأخذ عنهم فلاسفة المسلمين هذا الجانب العلمي أم يكون الدين الاسلامي هو الأصل الأول؟ ألم لا يكون اليونان وفلاسفتهم أصحاب هذا الفضل إلا إذا أخذ القرآن بأساليب الفكر اليوناني أو إلا إذا اعتبر متكلمة المسلمين وفلاسفتهم فلسفة اليونانيين مصدراً أولياً في معتقدهم وكان القرآن مصدراً ثانوياً ، والحقيقة تكذب هذا وذاك . وهم ما استعانوا بالفلسفة اليونانية إلا بعد أن تشربت قلوبهم معتقدهم الديني ، وما كانت لهم الفلسفة إلا أدلة منطقية لا علمية ، والمنطق غير العلم إلا إذا امتزجا (قيل أيام)

(رابعاً) : (انتهى متكلمة المسلمين إلى أن العالم حادث وانتهى الغربي إلى أنه قديم) ، هذا ما قاله . والمقصود من هذا واضح ، وتقرير هذا القول يحمل الناس على تقرير التفاصيل بين العقلية العلمية للغرب وبينها لمتكلمة المسلمين . هذا صحيح لو كان الكلام صحيحاً ، ولو عنى متكلمة المسلمين بكلمة حادث ما عناه حضرة الفاضل . فانا نعلم وغيرنا يعلم بأن كلمة (حادث) هنا لا تعني ولا تدل على تاريخ زمن معين كأن يقال كذا آلافاً من السنين ، وإنما عنى متكلمة المسلمين بهذه الكلمة أن العالم حادث بالنسبة للخالق ، أي أن الخالق قديم بالنسبة لمخلوقاته ، فقرروا القدم الذي لا حد له إلى الله وقرروا الحدثية إلى مخلوقاته

(خامساً) : وبعد ذلك فمتكلمة المسلمين (انتهوا إلى أن الخالق مطلق التصرف في الكون منفصل عنه ومدبر له ، وأنه السبب لكل ما يحدث والعلة الأولى والأخيرة لكل ما يكون وسيكون) . هذا ما قاله حضرة الفاضل ، فهل نفى بهذا القول طبيعة العقل العلمي لهؤلاء المتكلمة ؟ أليس الدين الاسلامي المرجع الأول لهؤلاء المتكلمة ؟ فلماذا نأخذ الناحية السلبية من هذا القول ولا نقرر بأن الدين الذي اعتمدوا عليه كأساس أولي في مذاهبهم الكلامية قد دعاهم إلى أن يسعوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه وهو الذي دعاهم إلى ألا يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة ؟ فاذا كانوا قد اعتقدوا تلك الناحية السلبية فقط من قوله تعالى : « والله خلقكم وما تعملون » ، فهل يتناسب هذا الاعتقاد مع حقيقة الواقع وهم إنهم جعلوا للعقل حقه في تقرير مصير صاحبه ؟ ثم هل يتفق هذا القول مع كثير من أقوال متكلمة المسلمين كالنظام والجاحظ وغيرهما في الشك وفي تقدير العقل إلى أبعد حدود التقدير ؟

ثم نراه قد منح العقلية الغربية منحة تأبدا وقرر لها مذهباً

تنفر منه لأن العقل لا يقره فقال: (انتهى الغربي إلى أن إرادة الله مقيدة بنظام الكون وأفعاله قائمة على عنصر اللزوم والاضطرار).

أي كلام هذا ؟ وكلام من هو ؟ ومن قال بأن الغربي يعتقد هذا إلا إذا فقد الجانب العلمي من قوى تفكيره ؟ لأن كون سنن وانظامه نواميس فمن أقرها ومن وضعها؟ أليس هو الله ؟ ومن يقرر بأن إرادة الله هي التي تسيطر على هذا الكون ؟ أفيكون خالق الشيء مقيداً به وتكون إرادته متعلقة به ؟

فاذا كان بقاء هذا النظام الكوني دليلاً على شيء فهو أن إرادة الله لم تتغير وأنه أراد الكون على حاله . فاذا تغير هذا النظام الذي أراده الله اعتقدتم بأن هذا النظام مقيد بارادة الله إذاً فلتنتظروا

(سادساً) : في نظر الغربي (أن في قدرة الانسان تغيير المقدر له عن طريق معرفة النواميس المحكمة في وجوده)

أهذا كلام يقال؟ فلا هو منطق ولا هو علم ، ولا هو حقيقة ولا هو خيال . رجل لا يعلم ما قُدِّر له فكيف يكون قادراً على تغييره ؟ ثم هب بأنه علم ماقدر له كأن أوحى الله له بذلك أفيكون قادراً على تغيير ما أراد الله وتكون إرادة الانسان فوق إرادة الله؟ نحن لا نفهم من هذا القول إلا أنه كفر من ناحية دينية و كفر آخر من ناحية عقلية؛ وكفرٌ واحد عظيم في حدِّ ذاته فكيف بالكفرين؟

إذا كانت علوم الغرب دليلاً على عقليتهم فالى أي حد انتهوا في علومهم ؟ كان يقال قديماً بأن من بحث في العلوم الطبيعية ابتعد عن الخالق ، واليوم يقال بأن كل من امتهن هذه الصنعة وسلك هذا الطريق فلا شك بأنه يسير بخطى واسعة نحو الخالق إن كان كافراً به

فهؤلاء علماء مادة الحياة كلما عجزوا عن تفهم سر شيء ازدادوا إيماناً بأن قدرة عليا فوق قدرتهم واتفقوا على غير موعد بأن إرادة الخالق قد أخضعت كل النواميس لها ، ونحن ما علمنا ليومنا هذا إلا ما أراد الله لنا أن نعلم . أفيذهب بنا الغرور إلى حد تقييد الله بشيء خلقه ؟

(سابعاً) : (ثم المسيحية هي التي سادت أوربا في العصور الوسطى فنزعت بها منزع التفكير المعروف) الواقع يقرر عكس هذا ؛ إذ ليس في الدين المسيحي ما يقرر ذلك الجمود في القوى الفكرية كالذي ساد في العصور الوسطى

نحن نعلم بأن المسيحية وجدت في الشرق فكانت سبباً إلى حد كبير في توجيه منازع التفكير المختلفة من روحية واجتماعية وخلقية فقامت بنصيبها من الأصلاح ، وسارت المسيحية بتعاليمها إلى الغرب ذاته وكانت حاله أسوأ حال فهذبت من نزعة أقوامه ما ساعدتها طبيعتهم الخشنة وعقليتهم السميكة . وخلقت المسيحية في الدير والكنيسة تراث اليونان والرومان وغيرهم فقدمت للتاريخ العلمي خدمة لا تقدر بقيمة . وبعد هذا لم تكن المسيحية ولم تكن روح النسك الشرقية التي جاءت معها سبباً فيما ساد العصور الوسطى من فوضى واضطراب وقصور في النواحي الثقافية والعلمية . أيتهم الشرق بأنه سبب ذلك ولا يتهم الغرب وأقوامه هم الذين وجهوا تعاليم الديانة المسيحية وجهة مادية ؟

ثم ما هي العقلية التي جاءت بصكوك الغفران وما هي الطبيعة التي تقبلت الشرائع القوطية ؟ أجاءت مع المسيحية من الشرق أم نبتت في الغرب ومن بنات أفكار أقوامه، وهذا هو الواقع .

(ثامناً) : (فان شارل مارتل أنقذ العقلية الغربية من العقلية الشرقية حين كانت تغزو أوروبا على يد العرب) لو جاء بهذا الكلام أحدٌ من الغرب لعذرناه، فطبيعة الانسان كثيراً ما تغالط نفسها فتنكر الفضل على مستحقه . ولكن أن يأتي هذا الكلام من شرقي عربي فهذا مالا يُصدق .

حقيقة صد شارل مارتل تيار العرب ، فترى ماذا صد مارتل وماذا منع عن أوروبا؟ أمنع روح النسك؟ والعرب لم يعرفوا بذلك لا في الشرق ولا في الغرب ؟ أم أنه صد عن أوربا سبعة قرون من ينابيع الفكر والعلم والثقافة؟ وهذا ما أقر به علماء الغرب ومؤرخوهم قبل أن ينكره أحد من الشرق والعرب . سلوا مؤرخي النهضة الأوربية واستمعوا كتبهم عن أثر الأندلس في تلك النهضة ؛ ألم تكن جامعاتها وحلقاتها قبلة للطلاب من كل ركن في أوربا ؟ فلماذا تأثروا بالعلم ولم يتأثروا بالنسك ؟ ألأن العلم أسهل اقتباساً من النسك أو لأن العلم كان لديهم ولم يكن النسك؟

أفيكون مارتل بعد هذا قد أنقذ العقلية الجرمانية وهي كما يعلمها طلبة التاريخ من العقلية الشرقية يأتي بها العرب ، أم يكون مارتل قد أنقذ الجهل من العلم قروناً ؟